١٠

راهب الإسكندرية

أقبل أهلُ الدير على راهبهم الجديد يُحدِّثونه ويسمعون منه، وكان شيخًا قد تقدمت به السن، ولكنه احتفظَ بقوة ونَضرةٍ فلما يحتفظ بهما لشيوخ إذا قاربوا السبعين. وكان وَضيءَ الوجه، مُشرق الجبين، متُطلق اللسان، عذب الحديث فى يونانيته الإسكندرية. وكانت تظهر على وجهه وفى حديثه آثار النعمة والغنى، وحياة الرجل الذى لم يذُقْ بؤسًا ولا فقرًا ولا هوانًا. وكان قد أقبل على هذا الدير الصغير الذى كان يقوم فى طرف من أطراف الصحراء مما يلى الشام، حيث مر القوافل الآتية من بلاد العرب والذاهبة إليها. وكان مَقدَمه على الدير حديثًا لم تمض عليه إلا أيام قليلة.

وكان قد أقبل يحمل مالاً كثيرًا فيه ذهب وفضة، وفيه جوهر وعُروض فلم بلغ استأذن على رئيسه فأذن له. وهنالك قدَّم إليه ما كان يحمل من المال وقال: اتَّخذْ من هذا المال ما تُصلح به أمر الدير وأهله، فإن بقى منه فَضلٌ فأنفقه فى وُجوه الخير والمعروف؛ فإنى قد خرجتُ لك عنه كما خرجت لله عن لذات الحياة كلها، ووقفتُ ما بقى لى من العمر على الطاعة والعبادة والتفكير فى الدير، ولست أسألك إلا أن تؤوينى فى هذا الدير، لانقطع إلى عبادة الله وانتظار أمره. قال رئيس الدير: أما أنت فقد قبلناك على الرحب والسعة، وما ينبغى لنا أن نُردَ طارقًا يريد أن يشاركنا فيما نحن فيه من ذكر الله والإحسان إلى الناس. وأما مالُك فإنا نقبله شاكرين لله أن ساقَه إلينا؛ فإن حاجتنا إلى المال فى هذا المكان المنقطع الذى نحن فيه لا تنقضى. وسترى أن أيامنا ولياليا لا تخلو من هؤلاء الطارقين الذين تنقطع بهم سبل الصحراء فنؤويهم، ونُعينهم ونحملهم، ونَبذلُ ما نلمك من الجهد لنُبلغهم مأمنهم. والناسُ يُعيوننا على هذا المعروف بالقليل والكثير، فنقبل منهم ما يبذلون وننفقه فيما ترى. ثم أوصى به أهل الدير مَن علمه لما للجماعة من نظام. فلم يكد يمضى يبنهم أيامًا حتى ألفوه وكلفوا بحديثه، وعلموا أنّ عنده شيئًا، وأنه ليس كغيره من هؤلاء الذين تدفعهم قوةُ إيمانهم أو يدفعهم يأسهم مما كانوا يبتغون من المنافع والآمال أو اللذات إلى الدير. إنما كان رجلاً فذًا تدل مظهره وأحاديثه على أن له نبأ لا كالأنباء وأملاً لا كالآمال. فأخذوا كلما فرغوا من أعمالهم وطعامهم وصلاتهم حتى يُقبل الليل، يُطيفون به، ويَسمرون معه، فيتحدثون إليه ويستمعون له. وهم فى هذه الليلة يسألونه عن أمره: كيف انتهت به الحياة إلى الدير، وكيف طابت نفسه عن هذا المال العريض والثراء الضخم فنزل عنه كما ينزل عن أيسر الأشياء؟ قال: إن قصتى لا تخلو من عجب، وقد تسمعونها فتنكرون منها الشىء الكثير، ولكنى مع ذلك سأحدثكم بها لا رغبة فى أن أثير العجب فى نفوسكم، ولا فى أن أعينكم على إنفاق الوقت، ولكن نصحًا لكم وإشفاقًا عليكم؛ فقد أرى أن أمرى يثير فى نفوسكم حُبًا

للاستطلاع قَويًا متصلاً، يُوشك أن يصرفكم عن بعض ما ينبغى أن تفرغوا له. وما أريد أن أكون مصدر خطيئة مهما يكن أمرها يسيرًا.

ثم أطرقَ غيرَ طويل كأنه يفكر ويستحضر أولَ قصته، ثم قال: كنا ثلاثة شُركاء نُصرَّفُ بين أرجاء الأرض العريضة تجارة واسعة. وكنا قد اقتسمنا الأرضَ بيننا أثلاثًا، فرغ كل واحد منا لواحد منها يدبِّرُ شأنه، ويصرِّف التجارة فيه إيرادًا وإصدارًا. وكنا نلتقى من حين إلى حين ليُلقى بعضُنا إلى بعض ما انتهتْ إليه تجارتهُ من ربح، ولننظم فيما بيننا أمرَ هذه الثروة التى كانت تنمو فتسرع فى النمو، وتَطَّردُ زيادته الغريبة من عام إلى عام. وكان أحدُنا قد اتخذه مستقرّه فى روما وما أحدُنا قد اتخذ مستقرّه فى روما وما يدير منها تجارةَ القسم الغربى من الأرض. وكان الآخر قد اتخذ مقامه فى قسطنطينية يُدير تجارة هذا القسم من أقسام الدولة فى بلاد اليونان وتراقيا وما إليها حتى يصل إلى بلاد السيتيين، وكنت أنا قد اتخذت الإسكندرية لى دارًا، وكنتُ من أهلها.

وكانت إلىّ تجارة الهند وهذه البلاد التى يسكنها البدو، والتى تسيرُ منها القوافلُ فتخترق الصحراء على ظهور الإبل والتى يسمونها بلاد العرب. وكانت تجارتنا الواسعةُ تضطرنا إلى علم دقيق بأمور الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم، وبأمور الأقاليم والأقطار، وما تستطيع أن تُعطى وما تستطيع أن تأخذ، وبأمور الأقاليم والأقطار، وما تستطيع أن تُعطى وما تستطيع أن تأخذ. وكان هذا العلمُ يدفعنا إلى نشاط شديد عند رجال المال والزراع، وإلى اتصال شديد برجال الدين والسياسية والحكم. فأما صاحبى فى قسطنطينية فقد كان واسع الحيلة حسنَ المدخل إلى نفوس الناس، حتى استطاع أن يجعل لنفسه فى بلاط قيصر مكانًا ممتازًا، وأستطيع أن أقول: إنى جَهدتُ ووُفِّقت فى الجهد حتى كان حُكامُ مصر وبطارقتها وقادتها أصدقاء لي، لا يكاد أحدُهم يصل إلى الإسكندرية حتى تنشأ بينه وبينى أسبابُ المودَّة والألفة، وما هى إلا أن أصبح من خاصته وأصفيائه المقربين. ولم يكن صاحبنا الغربىُّ أقلَّ منا مهارةً، ولا أضيق منا حيلةً فى التعرف إلى مَن فى الغرب من العظماء، والسادة ومن الأشراف والملوك.

وكانت أمورُنا تجرى على خير ما نحب، إلا من ناحية واحدة كانت تُكلفنا عناء وجهدًا لا آخر لهما ولا غناء فيهما. وكانت الناحية هى ناحيتى أنا؛ فقد كنا نلقى مشقةً وعناءً فى تدبير تجارة الهند والشرق، لا نستطيع أن نصل إلى مصادرها ولا أن نأخذها من أهلها، لبعد الشُّقة وضعف الأداة وانقطاع سُلطان الدولة عند الصحراء. لكنا نتلقى هذه التجارة كما يتلقاها الناسُ الآن من هذه القوافل التى تحملها إلينا، فتقطعُ بها الصحراء وتُنفقُ فى ذلك من الجهد، وتحتملُ فى ذلك من المشقة، وتبذلُ فى ذلك من النفقات، ما يدفعها إلى أن تُغالى فى البيع، وتشتط فيما تطلبُ من الربح. وكنا نُذعن لشططها كما يُذعنُ الناس الآن؛ لأننا لم نكن نجد كما لا يجد الناس الآن بُدًا من هذا الإذعان. وكنا نسعى فى بلاط قيصر وعند حكام الإسكندرية ونُلحُّ فى السعي، نريد أن نحمل الدولة على أن تبذل شيئًا من الجهد لتبسط سلطاننا على الصحراء أو على البحر، فلم يكن سعينا ينتهى إلى شيء. وإنا لفى ذلك، وإذا فرصة تسنح وظروفٌ تتهيأ، ما كنا لنحسب لها حسابًا، وما كان ينبغى لنا أن نُهملها وقد سنحت وأمكننا من العمل.

أقبلت سفينةُ البريد ذاتَ يوم من قسطنطينية وفيها رسولٌ أرسله صاحبى إلى ينبئنى بأن كتابًا ذا خطر قد أرسل على الحاكم، ويتقدم إلى[1] فى أن أتلطف حتى أعرف من أمر هذا الكتاب ما يعين تجارتنا، وألا أقصَّر إذا عرفت ذلك فيما ينبغى أن أتخذ من الوسيلة لتستفيد تجارتنا أعظم الفائدة.

فلما قرأتُ هذا الكتاب عُنيتُ بما فيه، ولم ألبث أن زرت الحاكم، ولم أنصرف عن مجلسه، حتى علمت جلية الأمر، وحتى قدَّرت لتجارتنا نموًا لا حدَّ له. ذلك أن السفينة كانت تحمل إلى الحاكم كتابًا من ديوان قيصر، يأمره فيه أن يُهيئ أسطولاً لا يقل عن مائة من السفن ليبحر إلى بلاد النجاشى، وعرفت أن مصدر هذا الأمر إنما هو اعتداء اليهود فى أقصى البلاد العربية على إخواننا فى الدين، وتحريقُهم بالنار، وأخذُهم بألوان العذاب، حتى بلغ الذين قتلوا منهم عشرين ألفًا أو يزيدون. وقد لقيت عند الحاكم أخًا لنا فى الدين من أهل تلك البلاد، قد استطاع أن يفلت من اليهود ومعهُ مصحف من مصاحف الإنجيل قد مسَّته النار، فلجأ إلى النجاشى يطلب منه الغوث، وأظهر النجاشى حفيظةً وغضبًا للدين، ولكنه عجز أن يُغيثه؛ لأن جُنده على قوته وكثرته لم يكن يستطيع أن يعبر البحر إلا على السفن، ولم يكن عند النجاشى من السفن قليل ولا كثير.

---

(١) تقدم إليه بكذا أو في كذا: أمره به وأوصاه.

هنالك أرسل النجاشى هذا العربى النصرانى إلى قيصر يستنجده ويستعينه، ويطلبُ إليه السفنَ لتجيزَ جيشه إلى عُدوة[1] اليمن. ولم يكد قيصرُ يرى مصحفَ الإنجيل وقد مسته النار. ولم يكد قيصر يسمع قصةَ النصارى وقد خُدَّدت لهم الأخاديد وحُرِّقوا فيها تحريقًا، ولم يكد قيصر يسمع قصة ذلك القديس اليونانى الذى حمل إلى العرب دين المسيح، فذاقَ فى سبيل ذلك الموت محرقًا بتلك النار التى حرَّقت غيره من المؤمنين، حتى ثارت حفيظته ومؤجدته، وأمر من فوره أن يُكتبَ لحاكم الإسكندرية فى تسيير هذا الأسطول مهما يكلفه ذلك من النفقات.

فلما عرفتُ من الحاكم ومن هذا العربى جليَّة الأمر لم أطل التفكير، وإنما عدتُ إلى الحاكم بعد ساعات وقلت له: لا عليك! إنى أريد أن أنهض بهذا الأمر، وأن أجد فيه وحدى، وأن أريح الدولة مما قد تتكلف فى سبيله من الجند والمال والمشقة. فهذا النجاشى لا يريد إلا سفنًا تجيز جنده إلى اليمن، فدعنى أهيئ هذه السفن. قال الحاكم وهو يبتسم: لا أرى بذلك بأسًا؛ فهو يُريح الدولة، وهو ينفعك وينفع صاحبيك؛ فما أرى أن هذه السفن ستعود فارغة، وما أرى إلا أن قوافل الصحراء ستتعب فى عبورها إلى الشام فى العام المقبل، وما أرى إلا أن أهل البادية سيحسون لذعَ الجوع. قلتُ: وإن أهل مصر والإسكندرية سيجدون الثروة والغنى إن وُفقنا فى هذه الرحلة، وإن أصحاب هذه السفن إن عادت سالمة موفورةً. سيعرفون للدولة ورجالها ما ينبغى من الحق قال الحاكم: فهو ذاك.

ولست أستطيع أن أصور لكم تلك الخواطر التى لم تكن تحصى والتى كانت تضطرب فى نفسى اضطرابًا كاد يذهلها عن كل شىء. فقد كنت أرى نفسى قائدًا عظيمًا على رأس أسطول ضخم، يُبعدُ فى البحر ليرفع أعلام قيصر على أرض لم تبلغها جنودنا من قبل. وكنت أرى نفسى سائحًا عظيمًا يسجل فى كل يوم ما شَهدَ وما رأى من غرائب البر والبحر، ومن أطوار الناس وضروب الحيوان والنبات. وكنت أقارن بين نفسى وبين إكسينوفون، وأرى أن الكتاب الذى سأكتبه عن هذه الرحلة لن يكون أقلَّ جمالاً ولا روعة ولا خطرًا من كتاب إكسينوفون بعد أن عاد من رحلته المشئومة. وكنتُ أرى نفسى ثائرًا للدين، منتقمًا للنصرانية، مؤيدًا للمسيح، ظافرًا بإكبار القسس والرهبان والبطارقة فى جميع أقطار الأرض. ثم كنتُ أرى نفسى بعد هذا كله مُثريًا عظيمًا قد ملك البحر، وقاد مائة سفينة فارغة، ثم عاد بها مثقلةً بخير ما تنتج الهند وبلادُ العرب السعيدة وبلادُ الأثيوبيين من ضروب التجارة والعُروض، حتى إذا انتهى إلى مصر نَشرَ تجارته هذه فى الشرق والغرب،وغمر الأرضَ كلها بهذه البضاعة فيسَّر على الناس من أمرهم كل عسير، وأتاح للأغنياء المترفين والفقراء والبائسين من وسائل الترف واللذة ما لم يكونوا يحملون

---

(١) العدوة: الشاطئ.

به، وربح من هذا كله ما لا لم أفكر فى إحصائه وتقديره، لأن ذلك كان يسلط على رأسى شيئًا من الدوار لم أكن أستطيع أن أثبت له.

ومنذ ذلك اليوم أعرضتُ عن كل شىء إلا تدبير هذه السفن وتهيئتها للرحيل. فما أكثر ما اشتريتُ من سفن، وما أكثر ما ابتنيتُ منها، وما أسرع ما بثثتُ أعوانى فى أقطار مصر يجمعون لى من أنواع التجارة والعُروض ما كنت أريد أن أحمله! فلم تَطلب نفسى عن ذهاب السفن فارغة إلى بلاد النجاشى. ولم تمض ستة أشهر حتى أقلع الأسطول العظيم بعد أن بارك عليه رجال الدين، وبمشهد حافل من رجال السياسة والأعمال، ومن جماعات الشعب الذين كانوا ينظرون إلينا مبتهجين مستبشرين، واللذين لم يملكوا أنفسهم أن دفعوا فى الجو صيحة هائلة ملؤها البشر والإعجاب حين اندفعت سُفنًا تشق عُباب الموج. وقضينا فى البحر أيامًا طوالاً تطيب لنا الريحُ أحيانًا، وتتنكر لنا فيها أحيانًا أخرى. ونحن على كل حال مبتهجون مستبشرون، نستمتع بما نرى من جمال الطبيعة فى هذا البحر الذى لم يألفه اليونان، ولم يُذلوه لسفنهم بعدُ.

لستُ أريد أن أسوءكم بأن أصور لكم حياتى فى تلك الأيام التى قضيتها قائدًا عظيمًا للأسطول العظيم، والتى كنتُ أراها أسعدَ ما كان ينتظر الإنسان من دهره، فأصبحت أراها الآن أيام شقوة ونقمة وتَعَس، واستغفر الله جاهدًا مما حملتُ فيها من أوزار وأثقال. وأعتقد أنى مهما أتكلَّف من مشقة فى العبادة، ومن حرمان فى ذات الله، فلن أكفِّرَ عن بعض ما جنيتُ فيها من إثم وذنب. وحسبى أن تعلموا أنى كنت كغيرى من أهل طبقتى ومنزلتى فى الإسكندرية وغيرها من المدن التى كانت تزهر فهيا الحضارة، ويسود فيها سلطان الفلسفة والعلم، رقيق الدين، قد اتخذت من المسيحية ستارًا لا يكاد يُخفى ما بقى لى من عادات آبائى الوثنيين. فقد كنت أحب اللذة وأتهالك عليها، وقد كنت أبسط سلطان عقلى على كل شىء، ينتهى بى إلى الشك فى كل شيء. وكنت أحب وثنية اليونان القدماء، وكلنى لا أؤمن بها، وأتكلف مسيحية اليونان المحدثين، ولكن لا اطمئن إليها. وكنت قد اتخذت لنفسى دينًا قد اتخذه أشرافنا وسادتنا لأنفسهم فى هذه الأيام. وقوام هذا الدين الشك فى كل شىء، والإيمان بإلهين اثنين، هما اللذة والغنى. وعلى اللذة والغنى وقفت حياتى فى الإسكندرية، وعلى اللذة والغنى وقفت حياتى حين كنت قائدًا عظيمًا لأسطول عظيم. فكم استصحبتُ من القيان والمغنين والشعراء والمضحكين؛ وكم حملت من الكتب والنبيذ! وكم أنفقت من الحيلة لأتخذ من ألوان الزهر والشجر ما يستطيع الاحتفاظ بجماله ونَضرته على بعد العهد واختلاف الجو والإقليم! وتستطيعون بعد ذلك أن تصوروا لأنفسكم كيف قضيت تلك الأيام الطوال منذ أبحرت من مصر إلى أن بلغت بلاد الأثيوبيين.

هنالك استقبلنا الناس استقبال الفاتحين الظافرين؛ فقد كانوا يتحرقون غيظًا على هذا الملك العربى اليهودى ومَن حوله من اليهود. وكانت قلوبهم تَدمَى حُزنًا على إخوانهم المسيحيين

الذين فُتنوا عن دينهم، واستشُهدوا فى سبيل هذا المسيح. ولم تكن النار التى كان يُثيرها الغيظُ والحزن فى صدورهم أقل من النار التى أذكاها ذلك الملك العربى اليهودى وحرّق فيها إخوانهم فى الدين. وما أظن أن أحدًا كره البحر وضاق به، وتمنى لو غار ماؤه والتقى ساحلاه، كما كره أولئك الناس بحرَهم ذلك الذى كان يحول بينهم وبين عدوهم من اليهود. على أننا أنفقنا أيامًا قبل أن نجيز بالجند إلى بلاد العرب؛ فلم يكن بُدٌ من أن ألقى الملكَ وأقدمَ غليه تحيةَ قيصرَ وهديته. ولم يكن بُدٌ من أن أصرف تجاربى وأستوثقَ لما حملتُ من العُروض.

وما هى إلا أيامٌ حتى كانت السفنُ قد شحنت بالجند وما يحتاج إليه من عُدة وسلاح وفيَلة. ولم يكن عبورُ البحر عسيرًا، ولم يكن النزولُ إلى أرض اليمن شاقًا، ولم يحتج الجند إلى كبير قتال؛ فإن الملكَ العربى لم يكد يرى هذا الجيش الضخم مجهزًا بما كان قد جُهز به من العدة والسلاح، ولم يكد يرى هذه الفيلة المروَّعة المخيفةَ حتى خاف وارتاع، ووجه فرسَه نحو البحر فاقتحمه ولم يعرف الناسُ له خبرًا. وتفرقَ منْ كان حوله من الجند وعلى رءوسهم أقيال اليمن وأذواؤها. وخَلصَت الطريقُ لنا إلى صنعاء، فدخلناها ظافرين ولم نَلقَ كيدًا. ولم نستقر فى صنعاء حتى وجهنا الجند إلى تلك المدينة الشهيدة فنبلغها بعد أيام ونرى من آثارها وأطلالها ما يمزق الأفئدة ويذيب النفوس.

فما أسرع ما يعمل الجند! وما أسرعَ ما يُسخَّر اليهود! وما أسرعَ ما تُقام المدينة! وما أسرع ما تُقام فيها البيع والكنائسُ! وما أسرع ما يُنادى فى الناس أن مدينة المسيح قد رُدت إلهى وأن أهلها الذين فرقهم الخوف آمنون! وما أسرعَ ما حُمل كثيرون من أهل اليمن على النصرانية حملاً! وما أسرع ما دخل كثيرٌ من أهل اليمن فى النصرانية راغبين أو راهبين! ونعود إلى صنعاء وقد ثأرنا للدين، وأقمنا نجران على خير ما كان ينبغى أن تقام عليه مدينةٌ من المدن.

وأخذتُ بعد ذلك أفكر فيما سَتُشْحَنُ به السفن من التجارة والعروض وجعلت أتهيأ لذلك وأهيئ له. وتحدثتُ فيه إلى قائد الجيش فلم يمانعنى ولم يأب على، بل تقدم فى ذلك بخير ما أحب. ولكنه طلب إلى ألا أعود بالسفن كلها إلى مصر؛ فقد تطرأ الطوارئ وتَعرضُ الأحداثُ ويحتاج جندُ اليمن إلى العبور إلى بلادهم، أو يحتاجُ أهلُ الحبشة إلى العبور إلى إقليمهم الجديد؛ فلا بد لهم من سفن وإن تكن قليلة يستعينون بعها على مثل هذه الشئون. فدع لنا بعض أسطولك ونحن نعوضك عنه بما شئت من المال والعروض.

وكذلك تم الاتفاق بينى وبينه على أن أنزلَ له عن ثلث الأسطول وأعود بثلثيه ودق حَملتها ما استطاعت حملة من تجارة تلكم الأقطار. ويتم كل شىء، وتُقلع سن الأسطول كلها إلا سفينة القائد العظيم؛ فنها تنتظر أن أصل إليها لتأخذ طريقها إلى مصر. ولكن حَدَثًا يحدث فيغير كل شيء، ويقطع بينى وبين الأسطول كل سبَبَ، ويصرفنى عن التجارة كارهًا أعوامًا طوالاً. ماذا

أقول! بل يصرفنى عن نفسى أعوامًا طوالاً. فقد كان قادةُ الجند منذ استقر لهم الأمر فى هذا الإقليم الجديد يختلفون بينهم اختلافًا شديدًا: أيكتفون بهذا الفتح الذى وفقوا له، والحزن فى صدورهم أقل من النار التى أذكاها ذلك الملك العربى اليهودى وحرق فيها إخوانهم فى الدين. وما أظن أن أحدًا كره البحر وضاق به، وتمنى لو غار ماؤه والتقى ساحلاه، كما كره أولئك الناس بحرَهم ذلك الذى كان يحول بينهم وبين عدوهم من اليهود. على أننا أنفقنا أيامًا قبل أن نجيز بالجند إلى بلاد العرب؛ فلم يكن بُدٌ من أن ألقى الملكَ وأقدمَ إليه تحيةَ قيصرَ وهديته. ولم يكن بُدٌ من أن أصرف تجاربى وأستوثق لما حملت من العُروض.

وما هى إلا أيامٌ حتى كانت السفنُ قد شحنت بالجند وما يحتاج إليه من عُدة وسلاح وفِيَلة. ولم يكن عبورُ البحر عسيرًا، ولم يكن النزولُ إلى أرض اليمن شاقًا، ولم يحتج الجند إلى بكير قتال؛ فإن الملك العربى لم يكد يرى هذا الجيش الضخم مجهزًا بما كان قد جُهز به من العدة والسلاح، ولم يكد يرى هذه الفيلة المروَّعة حتى خاف وارتفاع، ووجه فرسَه نحو البحر فاقتحمه ولم يعرف الناسُ له خبرًا. وتفرق مَنْ كان حوله من الجند وعلى رءوسهم أفيال اليمن وأذواؤها. وخَلصَت الطريق لنا إلى صنعاء، فدخلناها ظافرين ولم نَلقَ كيدًا. ولم نستقر فى صنعاء حتى وجهنا الجند إلى تلك المدينة الشهيدة فنبلغها بعد أيام ونرى من آثارها وأطلالها ما يمزق الأفئدة ويذيب النفوس.

فما أسرع ما يعمل الجند! وما أسرع ما يُسخَّر اليهود! وما أسرع ما تُقام المدينة! وما أسرعَ ما تُقام فيها البيعُ والكنائسُ! وما أسرع ما ينادى فى الناس أن مدينة المسيح قد رُدت غليه وأن أهلها الذين فرقهم الخوف آمنون! وما أسرعَ ما حُمل كثيرون من أهل اليمن على النصرانية حملاً! وما أسرع ما دخل كثيرٌ من أهل اليمن فى النصرانية راغبين أو راهبين! ونعود على صنعاء وقد ثأرنا للدين، وأقمنا نجران على خير ما كان ينبغى أن تقام عليه مدينةٌ من المدن.

وأخذتُ بعد ذلك أفكر فيما سَتُشْحَنُ به السفن من التجارة والعروض وجعلت أتهيأ لذلك وأهيئ له. وتحدثت فيه إلى قائد الجيش فلم يمانعنى ولم يأبَ عليّ، بل تقدم فى ذلك بخير ما أحب. ولكنه طلب إلى ألا أعودَ بالسفن كلها إلى مصر؛ فقد تطرأ الطوارئ وتَعرضُ الأحداثُ ويحتاج جندُ اليمن إلى العبور إلى بلادهم، أو يحتاجُ أهلُ الحبشة إلى العبور إلى إقليمهم الجديد؛ فلا بد لهم من سفن وإن تكن قليلة يستعينون بها على مثل هذه الشئون. فدع لنا بعض أسطولك ونحن نعوضك عنه بما شئت من المال والعروض.

وكذلك تم الاتفاق بينه وبينى على أن أنزل له على ثلث الأسطول وأعود بثلثيه وقد حملتها ما استطاعت حمله من تجارة تلكم الأقطار. ويتم كل شيء، وتُقلع سفن الأسطول كلها إلا سفينة القائد العظيم؛ فإنها تنتظر أن أصل إليها لتأخذ طريقها إلى مصر. ولكن حَدَثًا يحدُث

فيغير كل شيء،ويقطع بينى وبين الأسطول كل سبَب، ويصرفنى عن التجارة كارهًا أعوامًا طوالاً. ماذا أقول! بل يصرفنى عن نفسى أعوامًا طوالاً. فقد كان قادة الجند منذ استقر لهم الأمر فى هذا الإقليم الجديد يختلفون بينهم اختلافًا شديدًا: أيكتفون بهذا الفتح الذى وفقوا له، وهذا الثأر الذى ظفروا به، فقد أرْضَوا الملكَ حين بسطوا سلطانه من وراء البحر، وأرضوا الله حين انتقموا لعبادة الشهداء، أم يحملون الناس على دين الملك حملاً،ويمحون اليهودية والوثنية من هذه الأرض محوًا؟ فأما قائد الجيش أرباط، فقد كان صاحب سياسة وكيد، وكان يرى الرأى الأول، وينظر إلى هذا الإقليم على أنه مستعمرة قد ضُمت إلى أملاك النجاشى، فيجب أن تُستغل أرضها وأن يستذل أهلها، ويُسخَّروا لخدمة سادتهم الفاتحين. وأما غيرُه من زعماء الجيش، ولا سيما عظيمهم أبرهة، فقد كانوا أصحاب نسك وطاعة ودين، وكانوا يضعون النصرانية فى المكان الأول، ولا يكادون يحفلون بالسياسة واستعمار الأرض. وكانوا يريدون أن يفرضوا النصرانية على اليمن فرضًا، وتقدموا فى ذلك إلى قائدهم أرباط، فأعرض عنهم وأبى عليهم. وما هى إلا أن ينقُضُوا عليه الجيش، وما هى إلا أن ينظر الرجل فإذا هو مضطر إلى أن يضرب بعض الحبشة ببعض. ويعجبنى أنا ما أرى، فأبقى لأشهد عاقبة هذه الخلاف. ولست أردى كيف استحالت مسيحيتى الدقيقة إلى إيمان قوى متين. والحق أنى سألت فنسى فأطلت السؤالَ عن مصدر هذا التبديل الذى أخذتُ أحسُه منذ وطئت قدماى أرض اليمن. وأكبر الظن أن منظر تلكم المدينة البائسة التعسة، وما كان قد أصابها من الخراب والدمار، لأن أهلها ثبتوا على دينهم، ثم ما نالها فى وقت قصير من التجديد والعمران، لأن قومًا آخرين قد أرادوا أن يثأروا لدينهم – أكبر الظن أن هذا كله قد آثارَ فى ضميرى على غير شعور منى إعجابًا بقوة هذا الإيمان الغريب الذى يحمل ألوفًا من الناس أن يستقبلوا الموت ويتهافتوا فى النار فرحين مُبتهجين كأنهم الفَرَاش، والذى يمحوا مدينة من الأرض محوًا، ثم يُقيمها رفيعةَ العماد، شاهقة البنيان، معمورة بالناس. كأن الدهر لم ينلها بمكروه. فانصرفت نفسى شيئًا فشيئًا عن هذه الحياة التى كنتُ أكبرها والتى أصغرها هؤلاء المؤمنون. ومهما يكن من شىء فقد أخذت أحس حبًا لهذه الأرض الجديدة، وميلاً إلى البقاء فيها، عطفًا على هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يُعلوا كلمة الحق، ويأخذوا الناس بدين المسيح راضين أو كارهين.

وإنى لفى هذا كله وقد اشتد الأمرُ بين الحبشيين المختصمين، وإذا رسول أبرهةُ يقبل على أرياط ليبلغه أن صاحبه يكره أن يقتتل الجيشان وأن تُسفكَ دماء الأبرياء. ويقترح عليه المبارزة، فأيهما يظفر بصاحبه كان الأمرُ إليه. فيرى أرباط فى هذا الاقتراح قَصدًا ورفقًا وإنصافًا، فيقبله ويجيب إليه. ويزدادُ فى نفسى الحرصُ على البقاء لأشهدَ عاقبةَ الأمر. وقد شهدتها فأكبرتها: التقى الخصمان وبطشَ أرياط بعدوه، ولكن الحربة لم تقتله وإنما شقت جبهته

وأنفه وشفته، ويُسرع عبدٌ لأبرهة فيضرب أرياط فيرديه. وتجتمع الحبشة على هذا الزعيم الذى كان يريد أن يكسب أهل اليمن يدين المسيح.

هنالك وقع فى نفسى أن هذه العاقبة ليست من عمل الإنسان ولا من المصادفة، وإنما هى شىء قضاه الله لأمر يُراد، فتشتد فى نفسى الرغبةُ فى أن أيطل البقاء بهذه الأرض لأشهد الصراع المحتوم بين المسيحية من ناحية واليهودية والوثنية من ناحية أخرى.

وكنتُ مع ذلك أنازعُ نفسى نزاعًا شديدًا، ولكنى لم أكد أتحدث إلى أبرهة حتى استقر رأيى على البقاء، فأرسلتُ رفيقًا لى إلى سفينة القائد ليقَدمَ بالأسطول على مصر، وقد أوصيته. وأحكمت أمرى له إحكامًا. ثم أبقى لأرى ما كان الله قد قدر لى أن أراه.

وهنا أذَّن مؤذِّن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حُجراتهم، فتفرقوا، وكم كانوا يودّون لو مُدّت لهم أسباب السمر والحديث.

وأنفق أهلُ الدير بقيةَ ليلهم بين جاهد فى العبادة، ومُغرق فى النوم، وأنفق أهلُ الدير بياض نهارهم بن مصل لله، ومُحسن إلى الناس. فلما جَنَّهم الليلُ وهدأت من حولهم الأشياء واتَّحدت الصحراء جلالها الرهيب، عادوا إلى مجلسهم يَسمُرون، وسألوا صاحبهم أن يتم عليهم ما بدأه أمس من الحديث. فقال: تمت عزيمتى بعد طول التردد والتفكير على الأوبة إلى مصر، وانتصر فى نفسى حب الوطن على حب هذه الأرض الجديدة، وظهر فى نفسى حبُّ اللذة والغنى على هذا الميل الجديد إلى النسك والجهاد فى سبيل المسيح. فأقبلتُ على أبرهة من الغد أوَدِّعه قبل الرحيل. ولكنى لم أرَ قائدًا ظافرًا ولا ملكًا منتصرًا، ولا رجلاً يزدهيه الفوزُ ويُحيى نفسه الأمل، وإنما رأيتُ رجلاً متهدمًا محزونًا كئيبًا، قد فكر حتى عَجز عن التفكير، وقدر حتى أعياه التقدير، فأسلم نفسه لقضاء الله فيه، كأنه الغريقُ أعيته مكافحةُ الموج، فاستسلم له وانتظر الموت. ولم أكد أتحدث إليه حتى عرفتُ مصدرَ ما هو فيه من هم وغم، ومن كآبة وبؤس فقد كان مستيقنًا أنه أغضب الله، وأحفظ الملك، وأساء إلى الناس. ألم يكن قد بغى على قائده واعتدى عليه فى غير حق ولا إذعان لما تقدم به الملك إلى الجند من الطاعة لقائده والنصح لخليفته فيه؟ فكيف استباح لنفسه أن ينتصف لرأيه بيده، وأن يفرض هذا الرأى على الجند فرضًا، لا يرجع فى ذلك إلى أمر من الملك، ولا ينتظر فى ذلك رأى الملك بعد أن يرفعه إليه! وكيف استباح لنفسه أن يقتل رجلاً من النصارى ويسفك دمه ظلمًا وبغيًا، لا لشيء إلا لأنه لم يوافقه فى الرأي، ولم يشاركه فى الهوى! وقد كان هذا الرجل مع ذلك نصرانيًا منك يؤمن بالمسيح ويُصلِّى لله، وقد ثأر للدين من عدوه، ورد المطرودين من النصارى إلى وطنهم، فآمنهم وأظلهم بسلطان واسع رفيق من الرحمة والعدل والإنصاف!

ثم هو لم يقف من العدوان والإثم عند هذا الحد، ولكنه ابتهجَ بما أتيح له من الأنصار والظفر، فلم يكد يرى خَصمه صريعًا تحت قدميه حتى التفت إلى عبده الذى قتل أرياط شاكرًا له مُغرقًا فى الثناء عليه، قائلاً له: احتكم فأنا زعيمٌ لك بكل ما تريد. وقد احتكم العبد، فأسرف على نفسه قائلاً له: احتكم العبد، فأسرف على نفسه وعلى مولاه، وطلب إلى سيده أمرًا عظيمًا: طلب إليه أن يُحكمَّه فى أبكار اليمن كافة، فلا تُزف واحدة منهن إلى عروسها حتى تمر به قبل الزفاف. ولم يشعر أبرهة بعظم هذا الأمر الذى طلبه إليه العبد؛ لأن نفسه كانت ثملة بهذا الفوز، مُعرضة عن كل شىء غيره، فأجابَ العبدَ إلى ما أراد، ولم يقدَّر أنه عصى الله بهذا الإثم الذى اقترفه، وأقدم على إذلال أمه لم تعرف الذل، وما كان لها أن تعرفه. ولكن أمر هذا العبد لم يكد يُعرف فى الناس حتى انتهى إلى نتيجته المحتومة، فلم يحيى العبد بعده يومًا كاملاً: لم يكد يلقاه أولُ ما من عرفَ هذا النبأ من حمير حتى عدا عليه فقتله. فكان أبرهة إذًا حين لقيته مُتعبًا مكدودًا، مُضطرب النفس، حائرًا غارقًا فى ندم عميق. وجعلتُ أرده إلى نفسه قليلاً، أجد لا فى تهوين الأمر عليه فلم يكن أمرُه هينًا ولا يسيرًا – بل فى التقريب بينه وبين الرشد والصواب، لعله يعود إلى التفكير والتقدير، ولعلى أستطيع أن أعينه على أن يجد لنفسه مخرجًا من هذا المأزق الذى اضطر إليه.

فقد كان عظيمًا حقًا أن تذهب كل تلك الآمال والأمانى التى ملأت نفس هذا الرجل وأصحابه من قواد الجند، ودفعتهم على ما دفعتهم إليه لينشروا كلمة الله، وليديلوا[1] للنصرانية من وثنية الوثنيين، ويهودية اليهود. وما زلتُ به ألاينه حينًا وأخاشنه حينًا آخر، حتى هدأت نفسه بعض الشيء، واستطعنا أن ننظر إلى الأمر فى رؤية وتبصر، وأقنعته بأن يبدأ بما لا بد من الابتداء به، فيرضى هؤلاء الناس الذين أحفظهم وأثار فى نفوسهم الحمية حين حكمَّ عبدًا من عبيده فى أعراضهم وكرامتهم. وما هى إلا أن يسمع لى ويقبل رأيي، وإذا هو يدعو إليه مَن حضره من أشراف حمير، فيعتذرُ إليهم ويثنى عليهم، ويهنئهم بما أظهروا من عزة وإباء للضيم، ويُقسم لو قد عرَف نيةَ العبد لما حكمه، بل لاكتفى بما يكتفى به الناسُ فى مثل هذه الحال، فأعتق العبد وأغناه ورده إلى بلاد الحبشة راضيًا مسرورًا. فأما وقد قتل هذا العبدُ نفسه فلا عليكم ولا على؛ فقد ظهر لى أنكم أحرارٌ كرام، وسيظهر لكم أنى حر كريم، وأن المودة بينكم وبينى لن تسوء، ولكنها ستسركم وتُقر أعينكم، وستشعرون بأنى لا أملك بلادكم لنفسى ولا للنجاشى مولاي، وإنما أملها لكم قبل كل شىء، أصلح من أمرها وأمركم مستعينًا بكم على هذا الإصلاح، فمن

---

(١) يقال: أدال الله فلانًا من فلان إذا أظفره به وجعل الكَرَّة له عليه.

رأى منكم أن يشير على بشيء فليفعل مشكورًا واثقًا بأنى سأقدُر نُصحه، وأسمعُ لمشورته ما وجدتُ على ذلك سبيلاً.

وكان لهذا الكلام اللين الرقيق موقعه فى نفوس هؤلاء الأشراف من حمير، الذين كانوا ينتظرون غضب أبرهة عليهم وانتقامه منهم. فلما رأوه مُلاينًا مُحاسنًا، لاينوه وحاسنوه، وأظهروا ثقةً ورضًا واطمئنانًا، ووعدوا بالنصح له والطاعة لأمره، كما كانوا يفعلون مع ملوكهم من أبناء تُبَّع. وبالغ أبرهة فى استرضائهم، فأجزل لهم العطاء، ونظم الصلة بينهم وبينه على خير ما يحبون، ثم خلا إلى فقال: لقد جئتنى مُوَدَّعًا فيما أذكر؛ لأنك تريد العودة على بلادك؟ قلت: نعم؛ فقد طالت غيبتى عن الوطن والأهل والمال قال: فإنى مع ذلك لن آذن لك فى الرحيل. قلت: وما ذاك؟ قال: ذلك أنك رددتنى إلى نفسى وأشرتَ على فأحسنت المشورة، وما أرى أنى أستطيع فراقك منذ اليوم؛ فأنا فى حاجة إلى رأيك وتدبيرك ومعونتك لى على ما سيغرضُ من الخطوب والأحداث، وقد رفعت عنى بعض الثقل، وفرّجتَ عنى بعض الحرج، وأصلحت ما بينى وبين أهل هذه الأرض. ولكن الملك واجدٌ علىّ وناقمٌ منى، ليس فى ذلك شك ولا ريب ولا بد من أن يُصْلَح ما بينى وبينه على أى نحو من الأنحاء، وليس لى غنى عن نصيحتك قبل أن تستقيم بينه وبينى الأمور. وهْبها استقامت على ما أحبُّ وأهوى، فإن بينى وبين نفسى خصومة عنيفة لا أقوى على حملها وحدى؛ فأعينَّى على نفسى ببقائك معي، فلعلك إن فعلت، أن تعيننى على أن أنفق حياتى فى إصلاح ما بينى وبين الله، بعد أن أثمتُ فأسرفتُ فى الإثم، وعدوت فأسرفت فى العدوان.

وكنت كلما هممتُ أن أجيبه مضى فى حديثه ملحًا فيه، ولم يمكنى من الكلام. وكان يقول: لقد أقدمتُ على ما أقدمتُ عليه من الأمر وإن فى نفسى لأمالاً كبارًا؛ فلم أكن أريد أن أكسِبَ هذه الأرض وحدها لدين المسيح، وإنما كنت أريد أن أنشر هذا الدين فى جميع هذه الأقطار التى لا تصل إليها أيدى الملوك، ولا ينبسط عليها سلطانُ قيصر وكسرى والنجاشى. فما يمنعك أن تعيننى على ذلك، وتشاركنى فيما سأبذل فيه من جَهد، وما سأحتمل فيه من عناء، وما سألقى عليه من أجر وجزءان؟! وكان يقول: ولستُ أرى على تجارتك بأسًا، وإنما أرى لها الربح كل الربح والنمو كل النمو؛ فما يمنعك أن تقيم هنا حتى تنظم الصلة بين بلادنا وبلادك، فتكسب أنت، ونكسب نحن، ويستفيد الناس جميعًا!!

كل هذا الحديث المختلف أثر فى نفسى وغير رأيى وعزيمتى، وأغرانى بالبقاء، وفتح لى أبوابًا من الأمل والنشاط لم أقدر قط أنى سألِجُها فى يوم من الأيام، فقد أريتنى محتكرًا لتجارة الهند وبلاد العرب. ورأيتى وزيرًا لملك إلاَّ يكن عظيمًا الآن، فسيكون عظيمًا من غير شك بعد وقت قصير.

ورأيتى سفيرًا مقيمًا لقيصر عند هذا الملك وعند النجاشى، أستطيعُ أن أسبر سياستها فيما يُرضى مصالح الروم ومرافقهم وتفوقهم السياسى على عدوهم من الفرس. وما هى إلا أن أقبل الإقامة مع أبرهة، إلى حين.

وتمضى أيام، وإذا أنباء النجاشى تصل إلينا مُخيفةً مُروِّعة. فلم يكد يعلم بما كان من اضطراب الجند وقتل قائده أرياط، حتى أقسم لا يستقرُ قبل أن يسفك دَمَ أبرهة ويطأ أرضه. ويخلو إلى أبرهة للتشاور وللتدبير! فيتفق رأين على أن نَحل الملك من قَسمه بحيلة من الحبل، وفن من فنون المكر؛ فإن أفلحنا فذاك، وإلا نصبنا له الحرب وقطعنا ما بينه وبيننا من صلة. وأنَّى ليده أن تمتد إلينا والبحرُ بيننا وبينه، والسفن خالصة لن امن دونه؟ ثم يقتصد أبرهةُ ويضع دمه فى قارورة، ويملأ جرابًا من تراب اليمن، ويرسل دَمه وتراب اليمن إلى الملكُ معتذرًا إليه وما وَسعه العذر، مجددًا طاعته، مؤكدًا وفاءه قائلاً: "هذا دمى فليسفكه الملك، وهذه أرضى فليطأها الملك، تَحلةً من قَسمه، وله على بعد ذلك ألا أورد ولا أصدر إلا عن أمره ورأيه ورضاه!".

وقد أعجبت الملك حيلتنا هذه، فيرضى عن قائده ويقره على عمله، ونفزع نحن لما كنا ندبر من الشئون. وكانت عظيمة حقًا تلك الشئون التى كنا ندبرها. فلم نكن نطمع فى أقل من أن نرد إلى بلاد اليمن يُمنها القديم، وثراءَها الذى بَعُد صوته فى الآفاق، وفى أن نجعلها خالصة للنصرانية، وفى أن تبسط سلطانها على بلاد العرب كافة. وكنت أداعب فى نفسى حُلمًا لذيذًا، لم يلبث أن أصبح أملاً لا تدفعنا إليه ظروف الحياة دفعًا فقد كنت أفكر فى أن أنشر سياسة قيصر وسلطانه مع دين المسيح، وفى أن أصل بين مُلك قيصر فى الشام وحلفاء قيصر فى اليمن، وفى أن أخضع ما بين هذين القطرين من الأرض لسلطان إن لم يكن خالصًا لقيصر. فهو شركةٌ بينه وبين حليفة النجاشى؛ وهو على كل حال مُعنيينٌ لقيصر على عدوه كسرى. ولم أكن أصارح أبرهةَ بهذه الأحلام والآمال، حتى اضطرتنى الظروفُ إلى أن أصارحه بها ذات يوم، حين أقبل السفراء من عند كسرى فأنبَئوا بأن الحرب قد شبت بين الفرس والروم وطلبوا إلى أبرهة أن يُعين على الروم بما يملك من قوة وتأييد. هنالك صارحت صاحبي، ولم أجد مشقةً فى إقناعه برأيى وحمله على ما كنتُ أريد. ألم يكن يجمع بيننا وبينه الدين!

على أننا فرغنا قبل كل شىء لأمور اليمن، فجددنا من عماراتها المتداعية، وأقمنا سدودها المتهدمة، ونظمنا مجارى الماء فيها تنظيمًا حسنًا، واجتهدنا فى نشر الدين ما وسعنا ذلك، لانشق على الناس ولكن نأخذهم باللين والرفق، وأقمنا كنيسةً فى صنعاء لم يَعرف أهلُ هذه البلاد مثلها ضخامة وفخامة، وجلالاً وجمالاً وزخرفًا: جلبنا لها المرمر من أطراف الأرض،ودعونا لها العمال من قسطنطينية، وحليناها بالذهب والفضة والجوهر، وحرقَنا فيها من الطيب والبخور ما كان ينتشر عَرفْه إلى أماكن بعيدة حول صنعاء، ورتبنا لها القُسُس والأحبار،

ورغبنا الناس فى أن يختلفوا إليها ويُصلوا فيها. وقدرنا أن نقيم أمثالها فى أماكن مختلفة من هذه البلاد، ولكن العرب أهل وثنية ولجاج فى الوثنية، كانوا يُكبرون من أمر أبرهة ويعظمون سلطانه ويبتغون عنده المعروف؛ ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الاستجابة له. وكان الذين يختلفون إلى كنيستنا قليلين مهما يكثروا، وكانوا جميعًا من ضعفاء الناس وفقرائهم وأصحاب الحاجة منهم. على أننا لم نستيئس وأخذنا نهيئ أمورنا ونرغب الوقود فى طاعتنا؛ حتى لقد دعا أبرهة إليه عظيمًا من عظماء العرب فى هذا الإقليم الذى يسمونه تهامة، فأكرم مثواه وأعظم أمره، وتَوَّجه ملكًا على قومه، وردّه عزيزًا مكرمًا.

وفى ذات يوم رُفع إلى أبرهة أمران ضاق بهما أشد الضيق، وخرج لهما عما قد ألف من الحلم والأناة. أصبح سَدنَةُ الكنيسة فرأوا أنفسهم أمام أمر عظيم: رأوا كنيستهم قد لُطخت بالقاذورات، وألقيت فيها الجيف، وانتهكت حُرمتها، فثاروا بذلك ورفعوه إلى أبرهة، وزعموا له أن هذا الإثم لا يمكن أن يجنيه إلا رجل من هؤلاء العرب الذين يأتون من تهامة، حيث يقوم لهم بيت هناك يقدسونه ويحجون إليه يسمونه الكعبة، والعرب كلها تحج إليه وتعظم أمره، وتعظم الذين يعيشون حوله من هذا الحى الذى يسمى قريشًا، والذى يتجر بين بلادنا وبلاد الشام.

فلما سمع الملك ذلك غَضبَ أشد الغضب، وأقسم لَيَدِمَنَّ هذا البيت وليحملن العرب على أن يحجوا إلى كنيسته بالسيف، بعد أن أعياه حملُهم على ذلك بالرفق واللين. ولم يكد النهار يتقدم حتى رُفعت الأنباء إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذى أرسله إليهم ملكًا، فطار طائرُه، وثار ثائره، وأذَّنَ من فوره بالتجهز للحرب والاستعداد للرحيل، وأرسل إلى النجاشى ينبئه بذلك، ويسأله أن يمده بالجنود والفيلة. وما هى إلا أيام حتى تهيأ له جيشٌ ضخم قوي، وحتى فَصلنا عن صنعاء يملؤنا الأمل وتزدهينا الكبرياء. وكنت أتحدث إلى أبرهة بأننا سنقطع هذه الطريق على طولها فى غير مشقة ولا جهد، وبأننا سنصل بين الشام واليمن، وبأنى سأستقبله ضيفًا فى بلاد القيصر، كما استقبلنى ضيفًا فى بلاد النجاشي. وكان جيشنا يعظم ويضخم كلما تقدمنا فى الطريق بمن كان ينضم إلينا من أذواء اليمن وأقيالها.

ولكن طريقنا لم تخلُ مع ذلك من العقاب[1]، ولم تكن أمنًا كلها، وقد نصب لنا الحرب جماعةٌ من أقيال المن على رأسهم رجل يقال له ذو نَفَر، غَيْرةً على وثنيتهم، وحفيظةً لبيتهم ذلك، ودفاعًا عن حلفائهم من قريش،ولكنا هزمناهم فى غير مشقة، وأخذنا رئيسهم أسيرًا. وهمّ الملك أن يقتله، ثم رقّ له وعفا عنه، واستبقاه فى أسره. ومضينا أمامنا لا نلقى كيدًا حتى كدنا نبلغ تهامة

(١) العقاب: جمع عقبة، وهي طريق في الجبل وعر، ويكنى بها عما يعترض الإنسان من المشاق والمصاعب.

اليمن، وإذا حى من أحيائها قوى عظيم البأس مسلَّط على الأرض، مُتحكم فى الطريق وفى القوافل التى تقطعها، يقال له خَثعم، قد جَمع لحربنا، وغرّه عددُه فخيل إليه أنه سيقهرنا كما تعوّد أن يقهر الناس من قبل. ولكنا قهرناه فى أقصر وقت وأيسر جَهد؛ وأخذنا رئيسه رجلاً يقال له نُفيَل بن حبيب أسيرًا. وهم الملك أنى قلته ولكنه استعطف وغلا فى الاستعطاف حتى ظَفرَ بعفو الملك، وتقدم مع الأدلاَّء ليسلكوا بنا طريقَ هذا البيت الذى كنا نقصد إليه. ونمضى فى طريقنا لا نلقى كيدًا، وقد هابتنا العرب وخلت لنا الطريق، وأعظمت أمرنا إعظامًا. حتى إذا دنونا من مكة، وبلغنا مدينة عظيمة هناك يقال لها الطائف؛ تقوم على مرتفع من الأرض عظيم، ومن حولها النخيل والكروم والحدائقُ فيها أنواع الفاكهة والثمر، كأنها مدينةٌ من مُدن الساحل الشامى قد نقلت إلى تلك الأرض المقفرة المجدبة فأقامت فيها مشرقة زاهية كأنها الابتسامة الجميلةُ فى الوجه المظلم الكئيب، خرج إلينا هنالك أهلُ هذه المدينة فقدموا الطاعة وأظهروا الخضوع، وبعثوا معنا رجلاً منهم يسلك بنا إلى مكة أقرب طريق. ومضى أمامنا حتى نبلغ مكة، فينيخ الجيشُ ليستريح قبل أن يأخذ فى الهجوم. ويأتى سفراء القباء إلى الملك من كل مكان يقدمون غليه طاعتهم وَيعرضون عليه ثُلثَ أموالهم، ويطلبون إليه أن يدع بيتهم هذا لا يمسه بسوء، فلا يسمع الملكُ منهم ولا يجفل بهم. ثم يرسل الملك طلائعه فتغير على ما حول مكة من الأرض وتستاق كل ما تجد فيه من مال. حتى إذا كان الغد أرسل الملكُ جماعة من أصحابه إلى مكة وكلفهم أن يسألوا عن سيدها وعظيمها؛ فإذا لقوه أنبأوه بأن الملك لا يريد قتالهم ولا حربهم، وإنما يريد أن يهدم هذا البيت، فإن خلوا بينه وبين البيت فهم آمنون، وإلا فليأذنوا بحرب تسحقهم سحقًا، وأمر الملكُ سفراءه أن يأتوا بعظيم قريش إن أظهر الموادعة والميل إلى السلم.

فقرة ناقصة(ويمضى السفراء)

ولكنى تبعته لأرى ما يكون من شأنه، فإذا هو لا يقبض هذه الإبل إلا ليرسلها هَديًا إلى هذا البيت، الذى لم يُرد أن يتحدث إلى الملك فيه. ويمضى هذا الشيخ إلى قومه من قريش، فيأمرهم أن يتفرقوا فى الشعاب وعلى رؤوس الجبال هَربًا من الملك، وإشفاقًا من مَعرة الجيش، ويقوم أمام بيته هذا الذى يعظمه وقد أخذ بحلقة بابه، ومن حوله نَفرٌ من قومه ويقول كلامًا حسن الانسجام شديد الوقع فى النفس، سمعته أحببته ولكنى لم أفهمه، على أنى كنت قد أخذتُ أحسن هذه اللغة. ثم يرسل حلقة الباب، ويمضى مع كل من كان يصحبه من قومه فيحتضن فى شعب من الشعاب. وانظر أنا إلى هذه المدينة فإذا هى قد خَلتْ من أهلها، وقامت بيوتها هادئة ساكنة، يُظلها حزنٌ عميق فيه هيبة وجلال. قامت يُظلها هذا الحزن، ولكنى لم أكن أرى فى هذا الحزن خوفًا من ولا إشفاقًا من معاول الهادمين. وأصبحنا وقد أمر الملك بدخول المدينة، فيهم الجيش أن

يتحرك وفى مقدمته فيلٌ عظيم، ولكنى أرى دليلنا نُفَيلَ بن حبيب الخثعمى يدنو من الفيل فيأخذ أذنه ويُسر فيها كلامًا، ثم يُرسلها ويشتد هاربًا فى الجبل.

وتثير حركةُ هذا الرجل فى نفسى شيئًا من العجب، فلما علمتُ أنه يعرف منطق الفيلة، وما علمتُ أن الفيلة تعرف منطقَ العرب، عجبتُ، وليت عجبى لما يتجاوز هذه القصة، ولكنى رأيتُ بعد ذلك ما يقضى على كل عجب: رأيت بعد ذلك أشياء ما قدرت قط أننى سأرى بعضها، رأيت بعد ذلك أشياء وَددتُ لو لم أرها قط.

وإنى على ذلك لسعيد أشد السعادة، مغتبط أشد الغبطة لأنى رأيتها، فهى التى هدتنى إلى الحق، وهى التى كشفت عن نفسى الغطاء. رأيت الفيل قد بَرَك حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم، حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد، وَيجدُّ ساسته بعد ذلك فى إنهاضه فلا يبلغون منه شيئًا، يحثُّونه ويؤذونه ويضربونه، ويبلغون به أقصى ما يهيج الفيل فلا ينهض ولا يهم بالنهوض. حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض ومضى مُهرولاً، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برَك ولم يتقدم أمامه إصبعًا. ونحن ننظر إلى هذا وقد ملأنا العجب وأخذ الدهش من نفوسنا كل مأخذ، وبدأ الخوف يلعب بقلوبنا، وبدأ الذعر يُطلق بعض الألسنة بالرغبة عن دخول المدينة والانصراف عن هذا البيت. وإنا لفى ذلك ننظر إلى الساسة وهم يعالجون الفيل، وإذا الجو يظلم شيئًا فشيئًا، وإذا سحابٌ كثيف يبدو لنا من بعيد، قد أقبل إلينا مُسرعًا من ناحية البحر، فلا نكاد نُطيل النظر إليه حتى نتبين، ويا هول ما نتبين! لسنا نرى سحابًا كالسحاب، ولا غمامًا كالغمام، وإنما نرى سحابًا حيًا يخفق بأجنحته خفقًا، ويبعثَ مَنظرُه فى نفوسنا روعًا يخرجنا عن أطوارنا وينتهى بنا إلى شيء يُشبه الذهول. إنى لأرى الآن السحابَ حين كان يُقبل علينا أسرابًا من طير صغار، لها مناقير الطير وأكف الكلاب؛ حتى إذا دنت منا أخذت تَحصبُ الجيش بحجارة دقاق كانت تحملها فى مناقيرها وأرجلها. ولم تكن هذه الحجارة تبلغ دِقةَ العدسة ولا عظم الحمَّصة، وإنما كانت شيئًا بين بين، وكانت على دقتها لا تمس شيئًا إلا هشمته تهشيمًا، ولا تمس رجلاً إلا ألقه صريعًا. وسلوا ما شئتم عن خوف الخائفين وذُعر المذعورين، وانصراف أصحاب الفيل عن الفيل، وتحول الجيش عن مكة إلى غيرها من الوجوه جادًا فى الهرب، وهذه الأسراب من الطير تتبعه، تَحسِبه بهذه الحجارة، وتملأ الجو من حوله بصياح مخيف.

ولست أدرى كيف انتهى أمرّنا، ولا كيف نجونا من هذا الطير. ولكنى أرانى مجدًا فى الهرب، ومن حولى قوم يجدّون مثلى فى الهرب وقد حملوا رجلاً مريضًا سيىء الحال. حتى إذا انقطعت أصواتُ الطير، ونظرنا فلم نرَ فى السماء شيئًا، أخذت أسأل عن نفسى وعَمّن حولى وعن الجيش، وأخذت أسأل عن هذا المريض الذى أراه محمولاً يتأذى، فإذا هو أبرهة، قد مسَّه

حجر من تلك الحجارة فصُرع، وظهر على جسمه بلاه عظيم، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط قليلاً قليلاً، لا يسقط جزء منها إلا تبعه صديدٌ منكر قبيح. كم تأذى هذا الرجل! وكم احتمل من ألم فى نفسه وجسمه! وكم ذاق من مرارة الندم ولذع الحسرة واللوعة! إنى لأراه حين بلغنا صنعاء، وأدخل إلى قصره ليمَرض فيه وقد هزلّ ومسه الضر، حتى لكأنه فرخٌ من فراخ الطير. على أن حياته لم تمتد فى قصره، وإنما ألحّ الألم عليه إلحاحًا شديدًا. وأقبل أحد بنيه صباح يوم فنعاه إلى فما سألتُ كيف مات، علمت أن صدره انفجر عن قلبه انفجارًا.

وكان حديثُ الشيخ قد ملك على هؤلاء السمار نفوسهم وقلوبهم، فأغرقوا فى شىء من الوجوم لم يحسوا معه أن صاحبهم قد قطع الحديث واندفع فى فكير عميق بعيد، ولستُ أدرى كما أنفقوا من الوقت فى هذا الوجوم الصامت، ولكنى أعلم أن رجلاً منهم شابًا لم تكن قد تقدمت به السن بعدُ، خرج من هذا الصمت وأخرجهم منه حين قال بصوت متهدج تقطعه العبرات تقطيعًا: إن لهذا البيت فى مكة لشأنًا! قال الشيخ: نعمّ إن لهذا البيت فى مكة لشأنًا، وإن هذا الشأن هو الذى اضطرنى إلى أن أعود من اليمن مسرعًا ما وسعتنى السرعة، حتى أبلغ مصر وأنتهى إلى الإسكندرية، وأقسم ما حفلتُ بأهلى ولا بوطنى ولا بشركائى فى التجارة، ولا أتحت[1] لأحد منهم أن يسألنى من أمرى عن قليل أو كثير، وإنما فرّقت فيهم مالى تفريقًا، وحملت منه ما استطعت حمله، ومضيت إلى الشام يحسبنى الناس تاجرًا يبتغى الربح، وإنما كنت سائحًا يبتغى هذا الدير لأدخله، فأخرج من الحياة ولذّاتها، ومالها وغرورها، وأفرغ للعبادة وطاعة الله.

وإنى لأرجو لو امتدت بى الحياة أن أعود إلى هذا البيت فى مكة، لا غازيًا ولا باغيًا ولا قاصدًا على شر، بل تائبًا ثائبًا منيبًا مستغفرًا من هذا الإثم الذى شاركت فيه. وإلى أن يتيح الله لى هذه الأوبة إلى مكة، إن كان قد قدر لى أن أراها مرة أخرى، فسأقيم معكم ألقى من تَلقونَ من هؤلاء الذين يأتون من مكة ويعودون إليها، فأتحدث إليهم وأسمع منهم، وأنالهم بما أستطيع أن أنالهم به من إحسان.

وأذّن مؤذَن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حجراتهم، فتفرقوا وما فى نفوسهم رغبة فى سمر ولا ميل إلى حديث، وما منهم إلا من يفرك فى هذا البيت الذى أحجم عنه الفيل، ورجمته طير أبابيل، ترمى عدَّوه بحجارة من سجيل، فإذا هم كعصف مأكول.

---

(١) أتاح فلان لشيء: هيأه.